

باب ذكر زي الظرفاء في الطعام الذي بانوا به عن منزلة اللئام

اعلم أن أول ما استعملوه تصغير اللقم، والتحالل عن الشره والنهم، وأكل الأوساط الرقاق، والبزماورد الدقاق، وليس يأكلون العصبة والعضلة، ولا العرق والكلوة، ولا الكرش والقبة، ولا الطحال والرئة، ولا يأكلون القديد؛ يأكلون الشريد ولا ما في القدر من الورق، ولا يستحسنون المرق، ولا يتبعون مواضع الدسم، ولا يملثون أيديهم بالزهم، ولا يجللون الملح، وهو عندهم من أكبر القبح، ولا يكوكبون في الخل، ولا يمنعون في أكل البقل، ولا يأكلون الطلع لشبه رائحته برائحة الماء الدافق، ولا يمششون من العظام كراديس قصب الساق الغليظ؛ وإنما مشاشهم ما لان وصغر ولا ما غلظ وكبر، ويأخذون ما ثقل من المشاش على ظهر الأصابع ويطرحونه ناحية من الخوان، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرغفان، ولا يتعدون مواضعهم، ولا يلمعون أصابعهم، ولا يملثون باللقم أفواههم، ولا يدسمون بكبرها شفاههم، ولا يقطرون على أكفهم، ولا يعجلون في مضغهم، ولا يأكلون بجانبى الشدقين، ولا يزاوجون بين الاثنين، ولا يجاوزون ما بين أيديهم شيء من الفتات، ولا يأكلون قدرًا باثثة ولا قدرًا مسخنة، ولا يغمسون في مرقة، ولا يضعون لقمة، ولا يأكلون شيئًا من الكورنج الصحنات، ولا الريشاء والسميكات، ولا شيئًا من الكواميخ والمالح وأكل ذلك عندهم من الفضائح؛ لا أن القينات المتطرفات والنساء القصريات، ربما تظفرن بأكل المالح والمملوح في منازل متعشقين وبيوت مرابطيهم، يذهبن مذهب طرح المؤونات وخفة النفقات، لا يأكلون الجراد والأريبان لعله شبههما بالأشياء القبيحة من الحيوان، ولا يأكلون الحبوب التي تهيج

الآرياح وتولد القرقره والانتفاخ، ولا يأكلون أكثر من أكلة ويكثرون القيام من مجالسهم، ولا يكثرون من الضحك والكلام عند حضور المائدة والطعام، ولا يتخللون على المائدة قبل أن تفرغ، ولا يتحفزون لمجيئها قبل أن توضع، وإذا غسلوا أيديهم لم يطلبون الغسل قبل طلب إيتائها من الوسخ والكدر، ولم يقصدوا التقصير الذي يبقى منه رائحة الغمر.

وكذلك أيضًا إذا تمندلوا فعلوا كفعلهم إذا غسلوا؛ فأما النقل فإنهم يحضرونه موائدهم ويطعمونه ولائدهم ولا يكثرون من أكله ولا يأتون على كله؛ وإنما يعثون منه بالشيء اليسير من النعنع، ويحتمون من ذلك الهندباء، والأكشوث؛ لبردهما، والفجل والحرف لنتنهما، والكراث والبصل لرائحتهما، والقداح والحدقوقا لخشنهما؛ ولأنهما أيضًا يخضران الأسنان والعمور ويحدثان الرائحة التغير، ولن يقع الثوم في قدر فيذوقونه ولا البصل فيقربونه، ولا يلفظون باسم الطرخون لابتداء اسمه وشناعة لفظه فيكنون عنه فيضيفونه إلى النعنع، وقد سماه بعضهم بقله الجياح، وسماه آخرون كافور الفؤاد وكل يقصد إلى معناه، والخس لا يقربونه لموضع تفقته، والخيار لا يأكلونه لعله برده، والجزر يتجاللون عن مسه ولا يرون النظر إليه دون أكله، وكذلك القثاء والهيلون؛ ولموضع النوى أيضًا رغبوا عن أكل الزيتون ورغبوا عن أكل ما خالطه من النوى من فاكهة الصيف والشتاء مثل: القصب، والبسر، والمشق أيضًا، والتمر، وكذلك سائر الأرطاب، والمشمش، والنبق والعناب، وكذلك في الخوخ والشاهلوج، والأجاص وهو عندهم من أكل العوام لا من أكل الخواص، ولا ينفق عندهم الرمان والتين وهذان عندهم والبطيخ من تهجين خاصة، إذا انشقت الرمانة وتصدعت البطيخة إذا انكسرت وجوزة ولوزة، وتينة، وموزة، ولا يدفع بعضهم إلى بعض وردة واحدة ولا نبقة واحدة ولا لوزة واحدة للتسفير ولما يقع فيه من التمثيل.

ولا تقول متظرفة لأخرى: هذه وردتك ولوزتك ونبقتك وجوزتك ورمانتك وتيتك؛ وذلك عندهم أجل العيوب، تشمئز منه القلوب، ويحبتون له أشد الاجتناب، ويكتبون له أمرًا اكتئاب، وكذلك لا تقول واحدة لأخرى: ارفعي رجلك ولا ذيلك ولا أقعدي عليه، ولا دخليه وأخرجيه، ولا أصعديه لا صبيه، ولا أنفخيه، ولا سبيي، ولا أسرحي، ولا شيلي، ولا أنتحي، ولا أعملي، ولا قد عملت ويحبتون ذلك وما أشبهه من الكلام مما كثر استعماله في خطاب العوام، ولا يكادون يلفظون به ولا يطيف بأستهم، ولا يميزونه في شيء من مخاطبتهم ويحذرونه ويتوقون منه ويعيبون المتكلم به ويعرضون عنه.

باب ذكر زيههم في الشراب الذي يتخيره ذوو الألباب

أما ما عليه الظرفاء وأهل المروءة والأدباء، فإنهم لا يشربون من الشراب أسوده، ولا يشربون إلا أجوده مثل: المشمش، والزبي، والمعل، والمطبوخ، والطلاء، والمعدل، ولا يقربون ما لائم الخثر، ولا ما خالطه الكدر، ولا يشربون إلا ما صفا من الشراب، ويتجاللون عن المسحور الدوشاب؛ إذ هو من شراب العامة والرعا وشرب السوق والاتباع، ولا يتقلون على شراهم بالأشياء الرذلة مثل: الباقي والبلوط، والبسر المقلو، والقريثاء، والحنطة، والغبيراء، والشاهبلوط، والخرنوب الشامي، وما أشبه ذلك من الأبقال، وأكثر ما ينتقل به المتظرفون ويعبت به المتريكون، مملوح البندق، ومقشر القستق، والملح النفطي، والعود الهندي، والطين الخراساني، والملح الصنعاني، والسفرجل البلحي، والتفاح الشامي، ويتخذون من كل شيء من الآنية أسراه.

ومن الزجاج أجوده وأنقاء؛ وأما ما اجتنبوه من الهدايا وتخوفوا من هدايته البلايا، فأشياء يكثر بها العدد ويصول بها الأمد، وأنا أذكر من يسيرها ما يستدل به على كثيرها.

باب ذكر الأشياء التي يتطير الظرفاء من إهدائها
ويرغبون عنها لشناعة أسمائها

فمن ذلك الأترج، والسفرجل، والشقائق، والسوسن، والنام، وأطباق
الخلاف والغرب، والبان؛ فأما الأترج فإن باطنه خلاف ظاهره، وهو حسن الظاهر
حامض الباطن طيب الرائحة مختلف الطعم؛ ولذلك يقول فيه الشاعر:

أهدى له أحبابه أترجة فبكى وأشفق من عيافة زاجر
خاف التلون إذا آتته لأنها لوان باطنها خلاف الظاهر
فرق المتيم من حموضة لبها واللون زينها لعين الناظر

وأما السفرجل؛ فلأن فيه اسم السفر، وقد قال فيه الشاعر:

متحفي بالسفرجل لا أريد السفرجلا
اسمه لو عرفته سفرجل فاعنلى

وقال آخر:

أهتديت إليه سفرجلاً فتطيرا منه وظل متيماً مستعبرا
خاف الفراق لأن أوله اسمه سفر فحق له بأن يتطيرا

وأما الشقائق؛ فلشطر اسمه، ولقول الشاعر فيه:

لا تـراني طـوال دـهـم رري أهوى الشقائقا
إن يكن يشبه الخـدو دفن صف اسمه شقا

وقال آخر:

لا يحجب الشقائقا كل من كان عاشقا
إن نصف اسمه شقا ء إذا فهِتَ ناطقا

وأما السوسن؛ فلأن اسمه السوء، وقال فيه الشاعر:

سوسنة أعطتنيها وما كنت يعطائكها محسنة
شطر اسمها سوء فإن جئت بالـ آخر منها فهو سوء سنه
وأنت إن هاجرتني ساعة قلت أنت من قبل السوسنة

وقال آخر:

باذا الذي أهدي لنا سوسنا ما كنت في إهدائه محسنا
أوليه سوء فقد ساءني يا ليت أي لم أر السوسنا

وأما الياسمين؛ فلمبدأ اسمه تطير منه، ولقول الشاعر:

إني لأذكر بالريحان رائحة منها فللقلب بالريحان إناس
وأمنح الياسمين البغض من حذري لليأس إذ كان في بعض اسمه ياس

وقال آخر:

أبصرته في المنام ناولني من كفه الياسمين والغربا
فكان ياس من الياسمين وفي الـ غرب اغتراب يا شوم ما وهبا

وقال آخر:

أهدي حبيبي ياسميناً فبي من سره الطيرة وسواس
أراد أن يوئس من وصله إذ كان في شطر اسمه الياس

وأما النمام؛ فلشاعة اسمه، وقول الشاعر فيه:

حيثها بتحية في مجلس بقضيب نمام من الريمان
فتطيرت منه وقالت أقصه لا تقربن مضيع الكتمان

وأما الأس فقد تطير منه قوم وزعموا أنه إياس، وتفاعل به آخرون وزعموا أنه مواساة وأساس، قال الشاعر:

ما أحسن الأس في عيني وأطيبه لولا اتصال حروف الأس بالباس
ما ضرَّ من كان أهدى الأس من يده لو قال ريمانة يعني به الأسي
ولا الذي أتقى من طيرتي بهما ما فارقا أبدًا تاجًا على راسي

كذلك تطيروا من الخلاف لموضع الخلف، والغرب للاغتراب، والبان للتبان، وروي عن كثير غزة أنه بلغه أنها عليلة وأنها تشوقه، فخرج يريد لها وهي بمصر فرأى غرابًا ساقطًا على بانة يتفق ريشه، ويطاثره على رأسه فتطير من ذلك وأتى عراقيًا من نهد أخبره بها رأى؛ فأيسه من حياتها وأخبره بوفاتها، فلما وصل إلى مصر خبر بموتها فأنشأ يقول:

فما أعيف النهدي لأدردره وأعلمه بالزجر لأعز ناصره
رأيت غرابًا ساقطًا فوق بانة يتف أعلى ريشه ويطايره
فأما غراب فاغتراب من الهوى وبان فبين من حبيب تعاشره

وقال أبو الشيص:

أشاقك والليل ملقي الجران غراب ينوح على غصن بان
أحص الجناح شديد الصباح يكي بعينين ما تدمعان
وفي نعبات الغراب اغتراب وفي البان بين بعيد التداني

وقال بعض الأعراب:

وكنـت قد اندملت فهـاج شوقي
تجاوبـتـا بلحن أعجمي
فقلت لصاحبي وكنـت أحرى
فقالا الدار جامعة بسعدي
وكان البان أن بانـت سليمي
بكاء حـامتين تجاوبـان
على غصنين من غريب وبان
بزجر الطير ماذا تخبران
فقلنت بل أنـتما مـتـيـمان
وفي الغـرب اغـتراب غير وان

وقال نصيب:

الأراع قلبي من سلامة أن غدا
فأزجر ذاك البان بينا مواشكا
غراب على غصن من البان ينعب
وغربة دار ما تداني فيصقب

وقد استسخنوا هدايا كثيرة وتغالوا فيها بقول الشاعر، وإن كان بعضها مما ذكرناه أنهم لا يتهادونه من طريق الظرف، واجتنبوه لعله التسفيل وأجوبه من حسن التفل، فمن ذلك الرمان وهو مما ذكرناه أنهم لا يتهادونه؛ لما فيه من التسهيل وما يقع فيه من التمثيل، وكذلك الشاهلوج والنبق والورد والبنفسج؛ فأما الرمان فقد قال فيه الشاعر:

أهدت إليه بظرفها رمانا
قال الفتى لما رآه تفولا
رم يرم تشعني بوصالها
لقد التفول صادقاً قد كانا
تنبه أن وصالها قد أنى
وصل يكون متماً أحياناً

وأما الشاهلوج فهو مما فيه النوى، وقد تهاده قوم لموضع تفول الشاعر به إذ

يقول:

أهدت إليه الآن شاهلوجاً
تنبيه أن لوجاء كان ولوجاً

فمضى على قال الهدية حاسراً عمداً فصار مداخلاً خريجاً

وأما النبق فهو يستقبل، وقد قال فيه الشاعر:

أيا أحسننا خلقاً ومن فات الورى سبقاً
تفاء لست بأن تبقى فأهديت لنا النبقاً
فأبقاك إله النبا من ما سرك أن تبقى
وأشقى الله شأنك وحاشى لك أن تشقى

وأما البنفسج أيضاً، فقد قال فيه الشاعر:

أهدت إليه بنفسجاً يسليه تنبيهه أن بنفسها تفدييه
فارتاح بعد صباية وكأبة ورجا لحسن الظن أن تدنيه

وأما الخوخ، فقد أطنبوا في وصفه وأكثروا من مدحه وزعموا أنه أشبه شيء بالخدود من التفاح، وأقرب شبهاً بالوجنات الملاح؛ لأنه يشاركها في البياض والسمرة والأدمة والصفرة والتوريد والحمرة والزغب اللين البشرة، وهو أطيب ملثم وأعزب مقبل وأذكى مشم، وهو عند طائفة من أهل الهوى أجل مرتبة من التفاح لولا ما خالطه من النوى الذي لم يشماز منه الظرفاء ويشناه الأدباء، وأنه مفقود والتفاح موجود؛ وأما الورد فقد تفاءل به كثير من الظرفاء وذكره كثير من الشعراء، أنشدني بعض الأدباء:

أهدى له ورداً فأخبر أنه في الواردين ولم يكن وراداً
فارتاح من فرح بطيب وفوده وعداله ورد الحياء فزادا

وليس عندهم في الروض شيء يشبهه ولا في عروض الروض ما يدركه، وقد ذكرت ذلك في باب لطيف لرغبتى في اقتصاد التأليف، فقف عليه واعرفه.

باب ما قيل في صفة الورد ومحله في قلوب ذوي الوجد

اعلم أن الظرفاء قد أكثروا من تفضيل الورد، ومدحته الشعراء وقد أطنب فيه وأفرطوا في نعت حسنه، واشتهوا رائحته حتى شبهوه بالوجنات الحمر وقايسوه إلى الخمر، ومثلوه بالأشياء الملاح كفعلهم بالتفاح، وهما عندهم في مرتبة واحدة، قال العباس بن الأحنف:

أبغض الأس والخلاف جميعاً	لمكان الخلاف والياس منها
أحب التفاح والورد حتى	لو وزنتيه بالجبال وزنها
أشبهها ريقها ونكهة فيها	فهما يثنان بالطيب عنها

وقال آخر:

عشية حياتي بورد كأنه	خلدود أضيفت بعضهم إلى بعض
وولي وفعل الخمر في حركاته	فعال نسيم الريح بالغصن الغض

وقال آخر:

بضحك الورد إلى ور	د بخمدك مقسم
جمعا شكلي و قفي	من لأحفاظ النديم
غير أن المسك أولى	بك مسن كل نسيم

وقال آخر:

سيعلم الورد أني غير ذاكره	إذا الخلدود أعارت حسنها بصري
---------------------------	------------------------------

وبين ورد قليل المكث في الشجر
وذاك ممتهن في كل محضر

كم بين ورد مقيم في أماكنه
هذا جنى مصون في منابته

وقال عبد الله بن عبد الله بن طاهر:

حيي محبك قالت عنه لي شغل
ورداً جنيًا وذا بالكف يتبدل
فقد جنته له الأحساظ والمقل

مررت وفي كفها ورد فقلت لها
فقلت بخلاً فقالت قد وهبت له
إن كان لم يجنه منه أنامله

وقال آخر:

أبدًا ليس يريم
ما بدا منه نعيم

ورد خديك مقيم
أنسا منه في نعيم

وقال آخر:

فإنك لم يفجعك إلا فقاؤه
وداع حبيب بعد حول لقاؤه

تمتع من الورد القليل بقاؤه
وودعه بالتقبيل والشم والبكا

وقد تطير منه آخرون وسموه الغدار وغضوا دونه الأبصار؛ لقلة لبته ويسير
مكثه وسرعة زواله وتغيره وانتقاله، وخبرت أن قينة أهدت إلي ربيط لها غصن آس
فسر به وأنشأ يقول:

والورد يفنى ولا يبقى على الزمن

والآس يبقى وإن طال الزمان به

وأهدت له وردًا تطير منه وقال:

ورد شـهر لا شـهور
والآس نـصير

أنت ورد ويقاء الـ
يذهب السورد ويفنى

فكتب إليه بعض إخوانه:

سُرَّ بالأس الذي أهدت له ثم لما أهدت الورد جزع
ذلك أن الأس باق دائماً ولأن الورد حيناً ينقطع

وقال بعض الشعراء:

وصلت وكان الورد أول ما بدا فلما تولى الورد ولت مع الورد
فيا ليت أن الورد آس فإنه يدوم على الخالين في الحر والبرد

وفضائل الورد أكثر من أن يُحصى عددها أو يبلغ أمدها، وقد أفردت لذلك كتاباً بوبته أبواباً، وترجمته بكتاب العقد وشحته بفضل الورد فأغنى ما في ذلك الكتاب عن إعادة ذكره في هذا الباب.

والتفاح أعظم عندهم قدراً وأجلّ أمراً، وأعلى درجة وأرفع رتبة؛ لسلامته من البياض والتوريد، وقد ذكرت فضائل التفاح في كتاب التفاحة في غير باب؛ فأغنى عن إعادته في هذا الكتاب؛ غير أني أذكر في كتابنا هذا جملة مما وصفته به الأدباء ومدحته به الشعراء، ولست أذكر في عرض هذا الكتاب شيئاً مما في ذلك الكتاب؛ لأن لا يتلى بشيء من المحن فينسب إلى ضيق العطن، وبالله التوفيق.

باب ذكر التفاح وما كره الأدباء من أكله

اعلم أن التفاح عند ذوي الظرف والعشاق وذوي الاشتياق لا يعدله شيء من الثمر ولا النور والزهر، كيف وبه تهدأ أشجائهم، ويوروده تسكن أحزانهم، وعنده يضعون أسراهم وإليه يبدون أخبارهم؛ إذ كان عندهم بمنزلة الحبيب والأنيس ويموضع الصاحب والجليس، وليس في هداياهم ما يعادله ولا في ألطافهم ما يشاكله؛ لغلبة شبهه بالخدود الموردة والوجنات المضرجة، وهو عندهم رهينة أخبارهم وتذكر أصحابهم إلى وزدته يتطربون ويرثيته يتستبشرون، ولهم عند نظرهم إليه أنين، وعند استنشاق رائحته حنين، حتى إن أحدهم إذا غلب عليه القلق وأزعجه الأرق لم يكن له معول إلا عليه ولا مشتكي إلا إليه، وأنشدني بعض أهل الأدب:

لما نأى عن مجلي وجهه	ودارت الكاس بمجراها
صيرته تفاحة بيننا	إذا ذكرناه شامنا
وأهلها تفاحة أشبهت	خديبه في بهجتها وأها

وقال الحكمي:

تفاحة جاءت وقد علقنت	وركبت بالورد والأس
أشرب من كأس على ريجها	بالرغم من أهلي وجلاسي

وقال آخر:

تفاحة أهديت ظرفاً معضضة	وقد جرى ماء ثغري في ضواحيها
بيضاء في حمرة علت بغالبة	كأنها جنيت من خلد مهديها

روحي من سوء والأسقام تفديها
لخلت للصوت من لحدي ألبها

قد أتحفتني بها في النوم جارية
لو كنت ميتاً ونادتني بنغمتها

وقال آخر:

قد عض أعلاها بأسنانه
عذبَّه دهرًا بهجرانه

حياء من يهوى بتفاحه
جواد ولم يخل بها بعد ما

وقال آخر:

بالبنتي كنت الذي يوكل
بعلية الأكل ولا أوكل

تفاحه تأكل تفاحه
فالتمر والثمر لكسي أشفتي

وقال آخر:

قريبة العهد بكفيها
هرتها حمرة خديها

تفاحه من عند تفاحه
أحبب بها تفاحه أشبهت

وقال آخر:

ركبتها في خضرة الأس
تدور من كأس إلى كأس

تفاحه حمراء منقوشة
فلم تزل في كف ندمانا

وقال آخر:

ضمخها المهدي لها بالبعير
أهديت لي والله قصم الظهور
فصرت ماذا أهديتها في بحور

تفاحه من عند تفاحه
يساهدي الحسرة يا قتالي
قد كنت في بحر من حبكم

وقال آخر:

وما ألقاه في دار الخلود
من التفاح والورد النضيد
أشبهها بألوان الخلود

فلو كنت اشتكيت لأجل حزني
وكان طعمنا فيها جنيًا
لقلت دعوا لها حصي فإني

وقال آخر:

قد جُنيْتُ باللحظ من خده
بمسكر الأجال من صده
لعشر ما يلقاه من جهده

حيّاه من يهوى بتفاحه
معضوضة باللحظ محفوفة
لو شممها الخلق ماتوا معًا

وقد مضى من هذا الباب مقنع وهو كثير متسع، ولهم أشياء من زيبهم جليلة
وننف من مناقبهم نبيلة، أنا أصفها لك في موضعها وأقطعها من مقاطعها؛ منه
السواك الذي صبروه كأحد الفروض الواجبة والأمور الإرادية، وقد شرحت فيه
بابًا لتقف عليه إن شاء الله.

باب ما جاء في السواك وما قيل في عود الأراك

اعلم أن من زيّ الظرفاء وأهل المروءة والأدباء وأرياب الديانة والترفل، استعمال السواك والتسوك فهو أنبل النظافة وأحسن الطهارة وأكمل المروءة، ويرغب فيه أهل الظرف والفتوة، وله خصال مستحسنة، وهو أيضًا من السنة؛ وقد روي في الخبر المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «طهروا أفواهكم؛ فإنها مسالك التسييح». وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: السواك مطهرة للفم مرضاة للرب. وحدثنا أبي قال: حدثنا ابن أبي شيبة، عن عبد الله بن إدريس، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمر، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ».

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل تسوك، وعن أبي المليح، عن وائلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد أمرت بالسواك حتى حسبت أن يكون يكتب علي». وعن ابن أبي مليكة قال: عائشة تقول: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي وليلتي ويومي وبين سحري ونحري وخلطت ريقه بريقي، فقلت: يا أم المؤمنين، وكيف خلطت ريقه بريقك؟ قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ويده سواك فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: قد اشتهى السواك فأخذت سواكه فمضغته، ثم أعطيته فاستاك عليه السلام.

فلم يشغل النبي صلى الله عليه وسلم نزول الموت عن طلب السواك؛ إذ هو أظرف ما استعمل وأنبل ما استحسنت؛ لأنَّ يبييض الأسنان، ويصفي الأذهان،

ويطيب النكهة، ويطفئ المرة، وينشف البلغم، ويشد اللثة، ويقوي العمور، ويجلو البصر، ويحد النظر، ويفتح السدد، ويشهي الطعام، وقد استعملوا أمر المساويك الأراك والسكر وأصول السوس وعود المحلب وعروق الأذخر وعقد العاقر قرحاً، وكلما أغربوا في اتخاذ ذلك كان أكمل لظرفهم وأبلغ في معاني وصفهم.

وللمساويك أوقات معلومات، ومواضع محدودات لا تستعمل في غير أوقاتها ولا يتجاوز بها عن ساعاتها؛ فجائز استعمالها بالغدوات والعشيات، وأوقات الظهيرات، وقبل الغداة، وبعد الصلاة، وعلى الريق، وعند النوم، وفي نهار الصوم، ولا يجوز السواك عندهم في مواطن شتى منها؛ الخلاء والحمام وقارة الطريق ومحل الناس.

ولا يستاك أحدهم وهو قائم ولا متكئ ولا نائم ولا حيث يراه أحد، ولا يستاك ويتكلم، والسواك في الخلاء والحمام من فعل السفلة والعوام، وهو أيضاً يرخي اللثة ويغير النكهة، وليس ذلك عندهم من فعل الأدباء ولا من فعل ذوي المروءة والظرفاء، وقد اتخذ أهل الظرف للمساويك طسوتاً لطافاً وأباريق الشبه الخفاف، وكراسي الأبنوس المصدفة، والخيزران المشبكة، والأحقاق المخروطة، والمساكيد المدهونة، والسنونات المعمولة، ووقتوا له الأوقات المعلومة التي جعلوها كالفرائض المكتوبة والسنن المقرضة يتأهبون لوقته ولا يستعملون رأس السواك مدة طويلة وذلك عندهم من الأفعال الذليلة، ويتخذون لها اللقائف الخرز، وعصائب القز ليصونوها بذلك عن الدنس ويوقوها من الغبار والنجس، وقد تهادى أيضاً أهل الظرف المساويك وأقاموها مقام الرهينة والتذكرة والوديعة والقبلة، كما فعلوا باللبان الممضوغ والتفاح المعضوض، وقال العباس بن الأحنف: طال ليلى بجانب الميدان مع جوازي المهدي والخيزران

بين تفاحتين في ريحان
 به لفيها من طيب الأغصان
 من فاحت من ريح ذاك اللبان

أرسلت باللبان قد مضفته
 وبمسواكها الذي اختاره الله
 فكأنني وجدت ريحاً من الفردو

وقال أيضاً:

لمعرفتي أن الخواتيم تقطع
 يسكن ناراً في جوى القلب تلذع

ولما وهبتم خاتماً فرددته
 فأهدى سواكاً من فاك فإنه

وقال بشار بن برد العقيلي، يذكر ذلك أيضاً:

ما طعم فيها وما همت بإصلاح
 مثلوجة كزلال الماء بالراح
 ياليتني كنت ذا المسواك يا صاح

تسوكت لي بمسواك لتعلمني
 لما أتاني على المسواك ريقنها
 قبلت ما من فاهاً ثم قلت له

وقال أيضاً:

الإشهادات أطراف المساويك
 كف تمسك أو كف يعاطبك
 أحيت نفساً وكانت من مساعيك
 حبسي برائحة الفردوس من فيك

يا أطيّب الناس ريقاً غير مختبر
 إن الذي راح مغبوطاً بنعمته
 ولو وهبت لنا يوماً نعيش به
 يا رحمة الله حلى في منازلنا

وقال أيضاً:

وإن ألم بجلد جلد لها طار

يطيب مسواكها من طيب نكهتها

وقال آخر:

كنور الأقاحي طيب المتذوق

وبراقة تفر عن متبسم

أنائب عيذان الأراك المخلوق
فضيضاً بمزوج العقار المصفق

إذا مضغت بعد امتناع من المضحا
سقت شعب المسواك ماء غمامة

وقال جرير:

إلا أرى أم نوح فوق ما وصفوا
أودرة لا يوارى لونها الصدف
وفي المناصب من أنيابها عجف
كما تضمن ماء المزنة الرصف

ما استوصف الناس من شيء برزقهم
كأنها مزنة غراء رائحة
مكسورة الشدي في لب يزيتها
تسقى غمام ندى المسواك ريقها

وقال الفرزدق:

لها الركب من نعيان أيام عرفوا
رقاق وأعلى حيث ركين أصجف

دعون بقضبان الأراك التي جنسى
فمجن به عذب الرضاب عذابه

وقال ذو الرمة:

على الغر من أنيابها فهي نصع

جرى الأسحل الأحوى بطفل مطرف

وقال آخر:

بظمياء عن غرهن غروب
عليهن من ماء الأراك قضيب

نظرت بعيني شادن وتبسمت
جرى الأسحل الأحوى عليهن أو

وقال جرير:

برد محمد من متون غمام
يوماً ترد رسولنا بسلام

يجري السواك على أغر كأنه
إقرا السلام على سعاد وقل لها

وقال أيضًا:

إن الشقاء وإن ضنت بنائلها
ما في فؤادك من داء يحامره

فرع البشام الذي تجلو به البردا
إلا التي لورآها راهب سجدا

وقال جميل بن معمر:

بشعر قد سقين المسك منه
ومن مجرى غوارب أقحوان

مساويك البشام ومن غروب
شتيت النبت في عام خصيب

وقال آخر:

وغادين بالقضبان كل مفلج
رضابًا كطعم الشهد يجلو متونه
أولئك لولاهن ما سقت نضوة

بیه الظلم لم يقلل هن غروب
من الأيك أو غص البشام قضيب
ولا قابلتني في البلاد جنوب

وقال أيضًا:

إذا الريح من نحو الشمال تنسمت
تخبرت من نعمان عود أراكمة

وجدت لرياهها على كدي بردا
لهند ولكن من يبلغه هندا

وأنشدني أبو علي الحسن بن عليل العتري قال: أنشدني الزبير بن بكار قال.

أنشدني أبو مسلم الكلابي لمهدي بن الملوح الكلابي:

تبيت ليلى وقد كنا نبجلها
يا جبذا راكبًا كنا نهش له

قالت سقى الله ذاك المربع الجديبا
يهدي لنا من أراك الموسى القضا

قال القطامي:

منعمة تجلسو بخوط أراكمة

فري بررد عذب شتيت المناصب

كان فضيضا من غريص غمامة
على ظمأ جادت به أم غالب
لمستهلك قد كاد من شدة الهوى
يموت ومن طول العدة الكواذب

وقال بعض الأعراب وتروي للأميلس:

منعمة هيفاء عجزاء خدلة
تمس مثاني شعرها قضباً خزلا
وتجلوا بمسواك الأراك مفلحاً
عذاب الثنايا لا قصاراً ولا ثعلا

وقال العطوي:

عندكن الفؤاد والقلب رهن
في يدي ذات دملج ووشاح
وثنايا رقيقة كفدير
من مدام وروضة من أقحاح
فمساويكها بها كل يوم
في رياض من اصطباح الراح

وقال علي بن الجهم:

حجوا مواليك يا برهان واعتمروا
وقد أتتك الهدايا من مواليك
فأتحفيني بما تحفوك به
ولا تكن تحفتني غير المساويك
ولست أرضاه حتى ترسلين به
مما جلا الثغر أو ما جال في فيك

ولأبي الطيب في ذلك:

شهدي على طيب اللثات وريقها
أنايب عيبدان الأراك المفرع
كان حباب الريق حين تمجه
على شعب المسواك غير ممنوع
رشاش ذكي المسك شيب بعنبر
أو الراح من صفو العقار المشعشع

وقال مروان بن أبي حفصة:

شفاء الصدي ماء المساويك والذي أحب
تني الريق من خمل يتازلها طفل

فيا حبذا ذاك السواك وحبذا به البرد العذب الفريض الذي يجلو

وأحسن محمد بن عبد الله بن طاهر حيث يقول:

وإذا سألتك بمض ريقك قلت لي أخشى عقوبة مالك الأملاك
أييوز عندك أن يكون متيم يهواك عندك دون عود أراك
ماذا عليك جعلت قبلك في الثرى من أن أكون خليفة المسواك

وهذا باب تظنب فيه الشعراء ويتسع لها القول في ذكره، وقد مضى من بعضه ما أغنى عن شرح كله، وأنا أصف لك جملة من جميل مناقبهم وما يؤثر من حسن مذاهبهم إن شاء الله تعالى.

باب صفة ذوي التظرف ومباينتهم لذوي التكلف

اعلم أن من كمال أدب الأدباء وحسن تظرف الظرفاء، صبرهم على ما تولدت به المكارم واجتباهم لحسيس المآثم، وأخذهم بالشيم السنية، والأخلاق المرضية، وأنهم لا يداخلون أحدًا في حديثه، ولا يتطلعون على قارفي كتابه ولا يقطعون على متكلم كلامه، ولا يستمعون على مسر سره، ولا يستلون عما وري عنهم علمه، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه، يتسرعون إلى الأمور الجليلة، ويتبثثون عند الأشياء الرذيلة، فهم أمراء مجالسهم بهم يفتح عسر الأغلاق، وبهم يتألف متنافر الأخلاق، تسموا إليهم الآفاق وتشتي عليهم الأعناق، ولا يطمع في عيهم العائب ولا يقدر على مثالبهم الطالب؛ ألا ترى أنهم لا يتتجعون ولا يتبصقون ولا يتشاءبون ولا يستثرون ولا يتجشئون ولا يتمطون، وذلك عيب عند الظرفاء مكروه عند العلماء، وفيه حديث مأثور حدثنيه عبيد بن شريك قال: حدثنا ابن أبي مريم قال: أخبرني يحيى بن أيوب قال: أخبرني ابن عجلان عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، وإن أحدكم إذا قال: هاها فإن ذلك الشيطان يضحك في جوفه».

والظرفاء لا يتشاءبون ولا يتمطون ولا يوقعون أكفهم، ولا يشبكون أصابعهم، ولا يمدون أرجلهم، ولا يحكون أجسادهم، ولا يمسون أنوفهم خاصة إذا كان أحدهم بين يدي خليله أو ربيطه أو حبيبته أو من يحتشمه ومن يكرمه، ولا يدخل أحدهم الخلاء من حيث يراه أحد، ولا يبول بين يدي أحد، وليس من زيم الإقعاء في الجلسة، ولا السرعة في المشية، ولا الالتفات في طريق قصده، ولا الرجوع في طريق سلوكه، ولا ينفضون الغبار عن أرجلهم في المواضع المكنوسة، ولا يستريحون

في الأماكن المرشوشة، ولا يجلسون في مجلس فينتقلون منه، ولا يقعدون بحيث يقامون عنه، ولا يشربون ماء الأحباب ولا الماء في دكاكين الشراب ولا ماء المساجد والسبيل؛ وذلك مشني عند ذوي العقول، ولا يدخلون دكان هراس ولا دكان رواس، ولا يجتازون بدكان مراق ولا يأكلون شيئاً مما يتخذ في الأسواق، ولا يأكلون على قارعة الطريق ولا في مسجد ولا في سوق؛ وفي ذلك حديث مأثور وخبر مشهور حدثني أحمد بن الهيثم المعدل قال: حدثني سهل بن نصر وإسحاق ابن المنذر قال: حدثنا محمد بن الفرات قال: حدثني سعيد ابن لقمان بن عبد الرحمن الأنصاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الأكل في السوق دناءة».

والظريف لا يأخذ شعره في دكان حجام ولا يدخل بغير مئزر إلى الحمام؛ وقد حدثني أحمد بن محمد بن غالب -صاحب الخليل- قال: حدثني أحمد بن عبد الله بن هشيم بن مغيرة، عن إبراهيم قال: النظر في مرآة الحجام دناءة.

وحدثنا أحمد بن محمد بن غالب قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن راشد بن سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: من قلة مروءة الرجل نظره في مرآة الحجام وإطلاعه في بيت الحائك.

وقد ينبغي للظريف أن يدخل الحمام على خلوة لئلا ينظر فيه إلى سوء ولا يمد عينه إلى أحد، ولا يعلق توبه على وتد ولا يُدلي رجله في البثر التي ينصب إليها الماء؛ فإن ذلك مما يفعله الأذنياء، ولا يدللك يديه بخرقة؛ فإن ذلك مما يستعمله السفهاء ولا يتمرغ على حرارة أرض الحمام؛ فإن ذلك مما يفعله سفلة العوام بل ينبغي له أن يدخله متزراً ويقعد فيه معتزلاً ولا يقعد مستوفزاً على رجله؛ فإن ذلك طعن على عقله، ولا يميل مضطجعا بل يتصب متريعا؛ حتى إذا انصب العرق من بدنه وتحدر

على جسده وكان عرقه بين الكثير والقليل نشفه عن بدنه بمنديل، ثم دعا لرأسه بالغسول والأشنان المنخول، فإن كان من أهل المروات والنعم وأهل البيوتات والقدر ممن لا ينسب في فعله إلى شيء ليس من شكله، فليبتدئ دخوله الحمام بالإمساك عن الكلام والتجرج من الماء الحار ثلاث جرج وليقعد للعرق فوق نطع حتى إذا عرق سلت بدنه وجم عرقه فوزنه، وهذا الفعل لا يصلح إلا لذوي نعمة أو شريف أو متأدب فيلسوف؛ وأما سائر الناس من أهل الظرف فإنهم ينسبون بهذا الفعل إلى السخف، ولا ينبغي لظريف أن يمشي بلا سراويل ولا يتزر بمنديل، ولا يمشي محلول الإزار ولا مسبل الإزار، ولا يماكس في الشرى، ولا يركب حمار الكرى، ولا ينزل في خراب، ولا يقبض على كتاب، ولا يشارط صانعاً، ولا يصاحب وضعياً، ولا يشاتم رفيقاً ولا يغتاب أحداً ولا يذكر بسوء أخاً، ولا ينم بسريرة ولا يظهر خبيثة، ولا يخون عهداً ولا يخلف وعداً، ولا يضرب بين اثنين ولا يفسد بين خليلين، ولا يسعى إلى سلطان، لا يغمز بإنسان، ولا يهتك حرمة، ولا يتعرض لسرقة، ولا يتحلى بالكذب، ولا يستهدف للريب، ولا يجاهر بالزنى، ولا ينطق بالحنى، ولا يفسد حرمة الأخ الصديق، ولا حرمة الجار اللزيق، وأجود ما في هذا المعنى قول الاحوص بن محمد الأنصاري:

قالت وقلت نمرجي وبعلي	جبل امرئ بوصالكم صب
صاحب إذا بعلي فقلت لها	القدر مني ليس من شعبي
ثنتان لا أدنو لوصلهما	غرس الخليل وجارة الجنب
أما الخليل فلست مخلفه	والجار أوصاني به ربي

ومن تكامل ظرف الظريف ظهور بزته، وظهور طيب رائحته، ونقاء درنه ونظافة بدنه، ولا يتسخ له ثوب ولا يدرن له حبيب، ولا يفتق له ذيل، ولا يرى في

دخار يصه ميل، ولا في سراويله ثقب، ولا يطول له ظفر، ولا يكثر له شعر، لا يفوح لإبطه دفر، ولا لبدنه غمر، ولا يسيل له أنف ولا يسود له كف.

ولا يظهر له شقاق، ولا يرشش له بصاق، ولا يقف في مآقه رمد ولا صواره زيد، ومن زهم في مصاحبة الأرداء ومعاشرة الأخلاء حفظ العهود وإنجاز الوعود والدوام على الوفاء وقلة الرغبة في الجفاء وحسن المؤاتاة لاودائهم والمساعدة لأخلائهم والبشر بمن لقوا والتفقد لمن فقدوا والمساعدة بأبدانهم والمعونة بأموالهم وتخفيف المؤن على إخوانهم وكف الأذى عن جيرانهم والصفح عن المسيء لهم عند إساءته ومقابلة المحسن بإحسانه والترحيب بالصغير والتبجيل بالكبير.

وقد حدثني محمد بن يونس القيسي قال: حدثنا يزيد بن بيان قال: حدثنا أبو الرجال، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من شاب أكرم شيخًا عند سنّه إلا قيّض الله له من يكرمه عند سنّه». وقد يجب أيضًا على أهل المروءة مثل الذي يجب على أهل الظرف والفتوة والأدب؛ لأنها ليسا باللذذة والقصف ولا بالمفآخرة والحسب؛ وإنما هما بكمال المروءة والأدب، ولن يعرف الفتى جميل مواهب الفتوة إلا بسلوك طرائق المروءة، وقد ذكرت الفتوة عند بعض العلماء فقال: إن الفتوة ليست بالفسق والفجور؛ ولكنها طعام موضوع، وأذى مرفوع، ونائل مبذول، وبشر مقبول، وعفاف معروف، واجتناب للقبيح وأدب ظاهر وخلق طاهر، وترك مجالسة أهل الشرور والسمو إلى معالي الأمور، والاحسان إلى من أساء ومكافأة من أحسن، وقضاء حوائج الناس. فهذه جملة من زهم في حسن مناقبهم ومستحسن جميل مذهبهم.

ولهم أيضًا رقة الطبع والتلطف في كل الأمور، والمداراة والتملق والتأني والترفق؛ ومن ذلك قوله: ممن حبَّ طبَّ، أي: رفق ودارى، ومن ذلك سمي الطبيب طبيبًا لترفقه ومداراته، والعرب تقول: هو طب بالأمر، أي: عالم رقيق.

قال عمرو بن أبي ربيعة:

فأنتها طيبه عالمة تخلط الجسد مرارًا باللعب
ترفع الصوت إذا لانت لها وتراخى عند سورات الغضب

ولهم حسن التأني فيما يريدونه، ولطيف الحيل فيما يحاولونه وخفي التلطف لما يطالبونه حوائجهم سرية، وسرائرهم مخفية وأمورهم باطنة، وحيلهم لطيفة يوردون الأمور مواردًا، ويصدرونها مصادرها ولهم فيما استحسنوا من الهدايا بينهم البر والملاطفة والمكاتبة والتحفة من غيرهم ما يستصغر، ومن ذلك أنهم ربما أهدوا الأترجة الواحدة، والتفاحة الواحدة، والدستبويه اللطيفة، والشامة اللطيفة، والغصن من الريحان، والطاقة من الترجس، والرطل من الشراب، والقطعة من العود، والمخزنة من الطيب، والشيء اليسير، والوهط الصغير، ونظير ذلك من الأشياء القليلة الحقيمة والدليلة التي لا قدر لها عند ذوي العقول، فيستكثر ذلك منهم ويلقى بالقبول وتستحسن هداياهم وتستظرف ويفرح بها وتستظرف، ورغبة غيرهم من الناس في الأشياء الجليلة والهدايا النبيلة والطرف السرية والتحف السنية، غير أهل الظرف فإنهم اقتصروا على اللطف اللطيف والبر الخفيف.

ومن ذلك كتبهم الملاح وألفاظهم الصحاح التي يستعطفون بها القلوب ويسترون بها العيوب، ويستقبلون بها العثرات ويستدركون بها الهفوات التي قد استخلصوها من بديع الحرير الصيني وملح المالحم النيسابوري، وصفيق الديبقي الحفي، ونقي التاختج، والقوهي.

وتغلغوا إلى الكتاب في ذلك بالذهب والمسك والزعفران والسك، واتخذوا لها طرائف المناديل الرقاق، وجياد الزناير وختموها بالغالية المستمسكة، وطبعوها بنتف الألفاظ المهلكة، وقد ضمنت من مליح المكاتبه وطرائف المعاتبه وجميل المطالبة وشكيل المداعبه، ما يقربون به البعيد ويهونون به الشديد، وقد بينت ذلك أحسن البيان وشرحته بأخص المعاني ووصفت ما يتوصلون به من الرسائل وما يضمنونه كتبهم من الرسائل في كتاب مفرد وكلام مجرد، ترجمته كتاب فرح المهج، وجعلت ما فيه ذريعة إلى الفرح فأغنى عن تطويل هذا الباب ما مرّ في ذلك الكتاب، وأنا أصف لك أيضًا في كتابنا هذا جملة ما استحسنوه بينهم في المكاتبه وما استعملوه بينهم من المعاتبه، وأقصد في ذلك إلى مداعبه الكتاب ومعاتبه الأجاب وما تعاتبوا به من الأبيات واختاروه من المقطعات وما ذكروا على العنوانات من الكلام وما ضمنوه في كتبهم من السلام على غير نقص مني لكل ما في ذلك من الإشعار؛ إذ كان قصدي في كل أبواب الكتاب إلى الاختصار، وبالله أستعين وأستكفي وإياه أسترشد وأستهدي.

باب ما اختير من الفاظ الأدباء في المكاتبات واستحسن من الظرفاء من مליح المعاتبات

أخبرني الوضاح بن ثابت الكاتب قال: كنت عند بعض الكتاب إذ دخلت عليه وصيفة كأنها قمر تتشئ في مشيتها كأنها جان أو كأنها غصن بان ريان حتى وقفت بين يديه، فقالت: مولاتي تقرأ عليك السلام، وتقول لك: يا أخي جفوتنا من غير استحقاق للجفاء، وملت إلى غير مذاهب الظرفاء، وأنا لم أزل واثقة بإخائك راجية لحسن وفائك وتحقيق ظن مؤملك أولى بك من الوقوف على تجنيك. فقال لها: أقرئي عليها السلام، وقولي لها: يا أختي أنا من ودك على أحسن عهدك ومن الأمل لك على أضعاف ما عندك، ولقد استوحشنا من فقدك، فاجعلي لنا حظًا من أنسك. فسأله عنها فقال: جارية علي بن الجهم.

وأخبرني محمد بن إبراهيم الهمداني قال: أخبرني مولى لمحمد بن عبد الله بن ظاهر قال: قرأت رقعة لمولاي إلى بعض إخوانه: يا أخي مددت يدًا إلى المودة مبتدئًا فشكرناك وشفعت لك بشيء من الجفاء فعذرناك، والرجوع إلى محمود الوداد أولى بك من المقام على مكروه الصد.

وكتب بعض الظرفاء إلى صديق له: أيدك الله بوفاء الأدب من التزع إلى الجفاء وجعل آخر سخطك موصول بأول الرضاء. وكتب بعض الأدباء إلى صديق له يستعينه على جفاء كان منه ليس من تدبير من شملته أبهة الحكم وسمت به معالي الهمم أن يعطف على عهود صديق بعقوق ولا تضمحل واجبات الحقوق، ولا تغيره نوب أيامه عن رعاية ذمامه والسلام.

وكتب آخر إلى صديق له: بدأتنا بمودة عن غير خبرة وهجرتنا من غير سبب
يوجب طول الهجرة، وقد طمعنا أولئك في إخائك وآيسنا آخرك من وفائك،
فسبحان من لو شاء كشف باليقين من الرأي عن غير سمة الشكوك في أمرنا فأقمنا
على ائتلاف أو افتقرنا على اختلاف، والسلام.

وكتب سعيد بن حميد إلى بعض الكتاب: بلغني حسن محضرك فغير بديع من
فضلك، ولا غريب عندي من برك؛ بل قليل اتصل بكثير وصغير لحق بكبير حتى
اجتمع في قلب قد وطن لمودتك، وعنى قد ذلت لطاعتك، وليس أكبر سؤالها وأعظم
أربها الأطول عمر بقاء النعمة عليك، والسلام.

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له: مازال أحمد من عواقب رأيك وأشبهه من
وفائك حتى وثق في ضميري من مودتك ما استنجدني لطاعتك واستوى على من
موافقتك ما سهل على سبيل عتبك، فما أسلك بغلبة الهوى طريقاً إلا إلى رضاك، ولا
أستعين بهواك منك عليك إلا كان عوناً عليك لك، ولنعم المستعبد لي أنت على
المحامد واكتساب سنن الفوائد؛ ولذلك أقول:

عليّ رقيب من هواك يقودني	إليك على الحالات في السخط والرضى
وليس هواي حيث لا يستحقه	ولكن هواي حيث كان لك الهوى
لساني رهين بالذي أنبت فاعل	ورأيي موصول بما كنهه ترى
وما زلت لي عوناً برأي موفى	على صلة القربى بهدي أولى النهى

وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك: سروري أعارني الله حياتك إذا
رأيتك كوحشتي لك إذا لم أرك، وحفظي لك في مغيبك كمودتي لك في مشهدك،
وإني لصافي الأديم غير نغل ولا متغير، فامنحني من مودتك مزن لذادة مشربك،
وكن لي كأننا فوالله ما عجت عن ناحيتك إلا وأنا محني الضلوع إليك، والسلام.

فكتب إليه محمد: يا أخي ما زلت عن مودتك ولا حلت عن أخوتك ولا
استبطأت نفسي لك ولا استزدتها في محبتك، وإن شخصك لائل نصب طرفي ولقل
لما يخلو من ذكرك قلبي، والله در الذي يقول:
أما والسذي لو شاء لم يخلق النوى لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي
بذكر نيك الشوق حتى كأنني أناجيك من قرب وإن لم تكن قربي

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له تبين منه جفوة: سيدي ألزمتني الخضوع
وحرمت عليّ الهجوع، وضرمت ناراً بين الضلوع فتركتني فيك لائذاً بالعدو وممنوعاً
من السلو، منخفضاً من العلو بمنزلة من خان ودّاً أو نقض عهداً أو أخلف وعداً أو
أظهر صدّاً أو جحد يدّاً أو كفر عارفة أو غمط نعمة سائلة، سيدي لما اشتغلت بك
النفس القلقة والعين الأرقّة حلت عن محمود الوفاء وزلت عن غير ذنب يوجب
عقوبة المجترم، وغير سبب يقدر في مودة العبد المهتضم الذي توقعه جريته وتوبيقه
خطيئته، وتحل به إساءته وتلزمه هفواته سيدي: أوقعني يسير جفائك وإعراض
لحظائك في بحار هموم عريقها صباة وغموم، أخاطبك بلسان يعجز عن المخاطبة،
وأكاتبك بيد لا تجزي إلى المكاتبة، وأناجيك بضمير الهيبة المشاهد لك في الغيبة
مناجاة مغرم وصريع تجلد وحليف تلده، سيدي: كل عذاب ووجد جديد وسقام
عتيد، فهو في محبتك والدوام على مودتك يسير؛ فأما السبيل إلى وجه السرور
فمتعذرة، والخلاص في طرق السلامة إلى الراحة فمستوعرة، قد غلب الظمأ وبعد
المورد وقّل العزاء وفقد الصبر، وانحلت العزيمة، وبطل الرأي، وثبت الهوى فتمكن
في الحشاء فلا محيص لعبدك عنك ولا بد له في حالة السخط والرضى منك، سيدي:
الرجوع إلى محمود الشيمة أشبه من العود بالفضل، والتطول بالوصل أولى بالمولى من
الوقوف على الصدّ الذي يقدر في النية ويزيل عقد الطوية، وشفيعي إليك الذي
أرجو نجاح الشفاعة خضوعي لك واعتصامي بك وانحطاطي في طاعتك ووقوفي

بين يديك مستكينًا متحيرًا معترفًا؛ فإن ذلك أبلغ شفيع، وأنت فيما تراه في أمري
أكرم مولى في كل حال فإنه يتوقع جواب كتابه بما يسكن إليه ويتجدد به النعمة، فحق
تأميله وأكرم صفده وأقم أوده وعد في جفائه إلى دوام صفائه، والسلام.

باب ما ضمنوه كتبهم من الأشعار
وتكاتب به ذوي الظرف والأخطار

أنشدني بعض الأدباء:

هذا كتاب منم
مزج الممداد بدمعه
أنست الطيب فداه

وقال آخر:

هذا كتاب فتى له هم
غل الزمان بدي عزيمته
أفضى إليك بسر قلم

وقال آخر:

هذا كتابي بدمع عيني
إلى غزال كنت عنه

وقال آخر:

هذا كتاب أخي هوى وصبا
لاقى الدواة بعبرة مسفوحة
قرح الفؤاد تعود أشجانه

وقال آخر:

هذا كتاب منم

خطت إليك أنامله
فبكت عليه عواذله
بما مبتليه وقتله

عظمت إليك رجاءه همه
ورمى به من حائق قدمه
لو كان يعقله بكى قلمه

أملأه قلبي على بناني
يجل على اسمه لساني

لا يستطيع لما به كتابنا
كانت لمضمرا لعج عنواننا
لما به بخل الطيب وخانا

يشكو الصبا في كتابه

فاردد عليه جوابه
لو كان ينطق ذا الكتا

وقال آخر:

هذا كتاب فتى شكا سقما
بيكي عليه جفون مقلته
لولا مراقبة العدو ومن
لبكى علانية وقال لهم

وقال آخر:

هذا كتابي إليك أشكو
كتبت أشكو إليك ما بي
يا حسن الوجه كن شفيعي
ما ذكر القلب منك شيئاً

وقال آخر:

هذا كتاب فتى لغيبك حافظ
إن غبت أنس طرفه بدموعه

وقال آخر:

هذا كتاب أخي هوي مشتاق
أملى هواه على بنان يمينه
وكانه ينبى بما في نفسه

كسي يستريح إلى جوابه
ب شكا إليك عظيم ما به

ألف الشهاد فشفه سقمه
عدد الحروف وقد بكى قلمه
أضحى من الرقباء يتهمه
برح الخفاء وبإح مكتمه

إن لم تجد لي فما احتيا لي
نما أقاسي فما تبالي
إليك إن لم أبح بحالي
إلا تمثلت لي حيالي

صب بذكرك مستهام مدنف
وإذا أصابك طرفه لم يطرف

قرح اجفون بدمعه المهرق
فأبان كيف مصارع العشاق
من طول شوق واكتئاب باق

وقال آخر:

يشكوا إلى مستظرف ذواق
وكذلك فعل الخائن المذاق
ونخرجني أن تنقضي ميثاق
طول النجيب وشدة الإطلاق

هذا كتاب متيم مشتاق
أهدي له المهجران بعد تواصل
ما هكذا فعل الكرام فأجلي
وأرثي لصب هائم قد شفه

نارًا تضرم بكرة وأصيلا
بعد الصدود إلى الوصال سيلا
وتركت في الأحشاء منه غليلا
وعسى مداه أن يكون قليلا
حاشاك أن ترددي يداك قليلا
فأبى الرقاد فما يلذ مقبلا

وأنشدني إبراهيم بن محمد لنفسه:
هذا كتاب متيم في قلبه
فإذا قرأت كتابه فاجعل له
فلقد تركت فؤاده في غمرة
ولقد تبرم بالحياة وطولها
لا تفسرين به رداءه وحينه
حاشاك من قلق أطار رقاده

وأنشدني أيضًا لنفسه:

كتاب ذي صبوة عميد
وهذه لوعة الصدود
بكاء ذي الفقيد للفقيد
رضى المنوال للمعيد

هذا كتابي إليك فاقرأ
أقلقه شوقه المعني
لكنه في الظلام ييكى
إن كنت غضبان فارض عني

ولأبي الطيب في هذا المعنى:

كتاب من شفه السقام
فقد وهت مني العظام

هذا كتابي إليك فاقرأ
وارث لسقامي وطول صبري

فقتل حلف الهوى حرام

ولا ترد قتلتي وهجري

وقال آخر:

شاهد لي بعبرة وانتحاب
خاضع للهوى طويل العذاب
لست أدري بما يكون جوابي
فرج الله لي من الحجاب

أثر المحو في سطور كتابي
وبكائي يدل أني سقيم
أنا بين الرجا والياس وقف
فإذا اشتقت أن أراك أنادي

وقال آخر:

قالت أراد خيانتني وغروري
والمحو فيه لعلة التغير
كلا ولا للشهو والتقصير
حذر الفراق لما يجن ضميري
تجري دموع العاشق المهجور

غضبت لمحو في الكتاب كثير
كتب الكتاب على خلاف ضميره
ما كان دمعي للغرور وظنكم
كتبت بعيني والدموع هو أطل
فالمحو من قبل الدموع وإنما

وقال آخر:

حتى استهلت مبداع القلم
بواكف كالجمان منسجم
عذبني من هويت بالسقم
نمت وعين الشجي لم تنم
لاعذب الله قاتلي بدمي

ما زلت أبكي وفي يدي قلم
أكتم وجددي والدمع يظهره
ما زلت خلوا من الهوى فلقد
يا سيذا تاه ما يكلمني
أنا قتل الهوى وميته

وقال آخر:

ورجوت عدلك فانظري في قصتي

إني رفعت إليك قصة عاشق

فإذا قرأت فأحسني وتبني
منها فنون في صفات مودتي
عني ولا زالت عليك مجتني

ولقد كتبت ودمع عيني ساكب
إن الدموع تفجرت فتحدرت
لا فرج الله الصباية والهوى

وقال آخر:

يا ليت شعري ما يكون جوابي
طمع الحريص وخشية المرتاب

أما الرسول فقد مضى بكتاب
وتعجلت روحي الظنون وأشربت

وقال آخر:

قد أثناني برحمة وعذاب
فقوادي مفرق الأسباب

أسأل الله خير هذا الكتاب
أشتمني فكه فأفرق منه

وقال آخر:

يملسه قلبه الكئيب
ومبالها في الهوى نصيب

كتاب صب بدمع عين
يكتبه كفه بضعف

وقال آخر:

خوف الرقيب وسطوة الحجاب
لا تبخلوا عني ببرد جواب
أضحى أسير تذكروا نصابي
فلقد أطلتم بالصدود عذابي
كلف القواد مواصل الأوصاب
متعتب في غير كنهه عتاب

أما الكتاب فقد مضى وأمامه
طلب الجواب فأحسنوا في ودكم
هل تنقبضون متيماً ذا صبوة
جنودوا عليه برحمة وتعطف
أما الكتاب فمن كئيب عاشق
لكنه غاد إلى ذي سلوة

وقال آخر:

من الحبيب لذاب القلب واحترقا
وقد قضيت فأحي لي به رمقا

لولا الكتاب الذي جاء الرسول به
جاء الرسول على يأس بموعده

وقال آخر:

وزوري زورة في كل عام
إلى الصبّ الكئيب المستهام
ويسدر لاح من بين الغمام
أماننا للفقّاد من الغرام

صليني بالكتاب وبالسلام
وجودي بالكتاب وعنوانيه
من الشمس المنيرة يوم دجن
وناحلة فديتك يا مناي

وقال آخر:

فوافق منيتي وبلوغ سؤلي
تناولت الكتاب من الرسول
وتشنيع المقالة بالخليل

كتبته إليّ يا روجي كتابا
ولولا لعب همت لك لما
خافه نظرة من عين واش

وقال آخر:

واشتعلا من الهوى في ضميري
ومناي وغيايتي وسروري

لم يزدني الكتاب إلا اشتياقا
بأي أنت يا حبيبة قلبي

وأشدني أبو عبد الله الواسطي لنفسه:

من الشوق المبرح والفراق
ولكن لم تلاق كما ألقى
دموعا تستهل من المآقي
كريها طعمه عند المذاق

كتبته إلي تذكر ما تلاقى
لعمرك ما أهتمتك في وداد
فؤادي هائم والعين تذري
وقد ذقت الفراق وكان مرّا

على حد الصباية غير باق

على أني وإن أبديت صبراً

وقال آخر:

أوحى فديتك ذاتي وخضوعي
حتى محوت سطره بدموعي

قولاً لمن كتب الكتاب بكفه
مازلت أبكي مذ قرأت كتابها

وقال آخر:

عن الهوى وامتنع المطلب
إليه من زهرته المذهب
وهذا جسمي دنف متصب

الدمع يمحو ويدي تكتب
أنار خدي قمر زاهر
لقد براني سنم قاتل

وقال الحسين بن وهب:

جهلنا غير يسير
بقليل من كثير
وصفه عشر عشر
ت يمكنون الضمير
زاء والشعرى العبيور
ت لها خير سمير

يا منيائي وسروري
والذي نشكوه في الكتاب
لم تطبق المستنا من
فقني يا بأبي أنـ
ثم قولي مطلع الجو
حفظ الله فتى با

ولبعض المحدثين:

وهام ثرى قبر القتيل المتيم
ونؤي وفاء ليس بالتهدم
وأحسن من يزهو بطرف ويمسم
ودلاً وادلاً على حب مفرم

من الوهم من آثار قبر مسنم
ومن طلل الشوق لم يعفه البلى
إلى زينة الدنيا ومنية أهلها
وأملح خلق الله قدراً وصورة

وأسكن قلبي كل وجد ومالم
 وأندبه بالدمع طورًا وبالدم
 على البؤس والسراء حين التنعم
 ومولاته أنضجت أحشائي فاعلمي

سلام على من شقني وأذا بني
 ووكلني بالنجم أرعى أفوله
 وأحمد من أبلى شبابي بحبكم
 وبعد فقد والله يا سؤل عبدها

ومما ضمنوه كتبهم من السلام وجعلوه تلوًا للشعر والنظام

ولكن سلام لم يكن آخر العهد
فأصبح في كرب الحياة وفي جهد
وما قرقر القمري في ورق السدر
مشوم عليل مشعل القلب بالجمر
بأفق لساري الليل واستوثق البدر
وبلّ حشاه الهيم والذكر والعسر
ببدء هوائيك الشقي المقلقل
ولا الوجد عني ما حيت بمنجلي
فمريض وأما ودنا فصحيح
ونغدو بحب صادق ونروح
وقد كدت ألقى الله من كمد جهدا
أزداد إن زدتم على نأيكم صدا
ومالي عزاء مذ نأيت ولا صبر
فقد وجلال الله ضاق به الصدر
وجسمي نحيل والمدامع تذرف
بليت به تنكي القلوب وتشعف

عليك سلام لا سلام مودع
سلام محب خانه حسن صبره
آخر عليك سلام الله ما هبت الصبا
سلام سقيم مدنف القلب مقرح
آخر عليك سلام الله ما لاح كوكب
سلام غريب شفه الوجد والهوى
آخر عليك سلام الله هل أنا ميت
فميشي بخير واسلمي ليس حبكم
آخر عليك سلام الله أما قلوبنا
نيت بود خسالص وصبا
آخر عليك سلام الله قد شطت النوى
أموت بوجد مضمهر وصبا
آخر عليك سلام الله قدمت صبوة
أرى الصبر عنكم كاسمه مذ نأيتم
آخر عليك سلام الله قلبي متوق
ومثل الهوى أضنى الحشا وبمثل ما

وقال آخر:

إليك وشوقي أنني مدنف القلب

عليك سلام الله قدر صبابتي

رهين يد الأحزان والشوق والكرب
وما اشتاق ذو وجد وما طلع الفجر
أخي حشرات خانه فيكم الصبر

أبيت حليف الهم والوجد والأسى
آخر عليك سلام الله ما حنَّ ألف
سلام مشوق نحوكم متطلع

باب ما كتبوه على العنوانات وسلكوا به سبيل المداعبات

من الجسد الطريح بغير روح
غداة الدُّجن من يوم الغيوم
حليف الشوق محتبس الغموم
وبين ضلوعه قلب مصاب
فاضحى ما يسبح في الشراب
يخطُّ بأقلام إلى قلبه قبلي
وجبك لا يبلى ولكنه يُبلى
حلف السقام براني الشوق والأسف
والقلب محتبس والروح مختطف
حتى الممات وما قلبي بمعذور
وعاد عيشي صفوا بعد تكدير
حليف هم قرين العين بالسهد
إذا نأيت وما ألقاه من كمد

إلى سني ومالكتي وروحي
آخر إلى الشمس المنيرة حين تبدوا
من الصبِّ الكئيب أخي التصابي
آخر من الدنف الذي يضحى حزينا
إلى الخود التي أبلت شبابي
آخر مني إلى قلبي ولم أر كاتبًا
أرى كل شيء باليًا متغيرًا
آخر مني إليك فإني هائم دنف
النفس ذاهبة والعقل مختلس
آخر مني إليك فما وجدني بمنصرم
لو رأيتك يوما لانقضى حزني
آخر مني إليك فإني هائم قلق
الله يعلم ما بالقلب من قلق

وقد مضى من هذا الباب ما فيه كفاية، ولو ذهبت إلى تطويله لم يكن لآخره
نهاية، وقد أحببت أن أختم كتابنا بأشياء يستحسنها الظرفاء ويميل إليها الأدباء مما
يكتب على الأقلام من التفت ومليح المقطعات والظرف، وأنا ذاكر في ذلك بعض ما
استحسنته وملحًا مما استرققته، إن شاء الله قد جمعنا في هذا الفصل أشياء من
مستظرفات الأشعار ومستحسن الأخبار، ومتخل الأبيات ومتحب المقطعات
ونوادير الأمثال وملح الكلام، الذي يجوز كتابه على الفصوص والتفاح والقناني

والأقداح، وفي ذيول الأقمصة والأعلام وطرز الأردية والكمام، والقلائس والكرازن والعصائب والتكك والوقايات، وعلى المناديل والوسائد والمخاد والمقاعد والمناص والحلل والأسرة والتكك والرفارف، ووجوه المستنظرات وفي المجالس والإيوانات وصدور البيوت والقباب وعلى الستور والأبواب والنعال السندية والحفاف الزنانية، وعلى الجباه والطرز وعلى الحدود بالغالية والعنبر، وعلى الرطاة والوشاح، وفي تفليج الأترج والتفاح، ومما يعدل به من تنضيد الورد والياسمين، ويكتب على أواني الذهب والفضة والسكاكين وقضبان الخيزران المدهونة، والمخاد الصينية والمراوح والمذاب والعيدان والمضارب والطبول والمعازف والنايات والأقلام والدنانير والدراهم، وجعلنا ذلك أبواباً مبوبة وحدوداً مبيّنة؛ لتقف على أصولها وتبين حسن فصولها.